

الفصل الثانى

مكانة المرأة فى فكر الإمام محمد عبده

إن مسألة المرأة ينبغى ألا تقرأ فى فكر الإمام محمد عبده أو تدرس بمعزل عن منطلقات وركائز رسالة الإسلام التى تضى على كل المخلوقات حرمة وحصانة، وتعتبر أن لكل كائن نصيبا من الاحترام. فكل مخلوقات الله - طبقا للنص القرآنى قال تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(١)، بما فيها الدواب والطيور وغير ذلك من الكائنات التى تعيش فى البر والبحر، وهى تتعبد لله تعالى ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢)، كما ورد فى نص قرآنى آخر. ومن بين تلك الكائنات يعد الإنسان مخلوق الله المختار وخليفته فى إعمار الأرض، وهذه المكانة الخاصة يتمتع بها كل إنسان، ذكرا كان أم أنثى، باعتبار أن حق الكرامة منصوص عليه فى القرآن لكل بنى آدم، بغض النظر عن جنسيتهم أو عرقهم أو ديانتهم. إن الرسالة الإسلامية نزلت ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، والخطاب الإلهى سجل بوضوح أنه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾^(٤)، وإذا أضفنا إلى ذلك حق الكرامة المنصوص عليه فى القرآن وينصرف إلى البشر أجمعين، فينبغى أن يكون معلوما أننا بصدد رسالة شملت الجميع بالرحمة، وحفظت لكل مخلوق كرامته، الأمر الذى يعنى - ضمن ما يعنى - أن أى حط من قدر المرأة ومساس بكرامتها، يعد خروجا على التعاليم.

أو في أحسن أحواله تأويلا فاسدا لها، يسيىء إلى الرسالة بأكثر مما يسيىء إلى المرأة، من حيث إنه يعد عدوانا على مقاصدها وتعاليمها^(٤). إن التقاليد هزمت التعاليم في الخبرة العربية بوجه أخص - ذلك أن العصر الإسلامي الأول - الراشدي على وجه التحديد - شهد النقلة الكبرى في وضع المرأة، وحررها من آثار الجاهلية التي حقرت من شأنها، حتى لم تتردد في (وأدها) خلاصا من عار وجودها، ولكن الحقبة اللاحقة شهدت تراجعات عدة على ذلك الصعيد، ضمن ما شهدته الأمة من انتكاسات في أوجه الحياة الأخرى، وكانت النتيجة أن تآكلت مكتسباتها حيناً بعد حين، حتى ظهرت بصورة نسبية فكرة (الوأة) مرة أخرى، في صيغة رمزية وليست مادية. فاستعانت المجتمعات في حقب التردى تقاليد الشعور بالعار من وجود المرأة ومن أى حضور تمثله، سواء أكان ذلك في أنشطة الحياة الاجتماعية والعامّة أم في أداء الصلوات والمساجد. وفي هذا السياق تنافس البعض في تأويل النصوص الشرعية، بل ووضع النصوص التي تخدم أغراضهم. فظهرت مقولات تعمم اتهام النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، وأخرى تحرم عليهن الولاية، وثالثة تحظر التعليم عليهن، ورابعة تمنعهن من الخروج من البيت، بل وجدنا من يقول بأن المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات، من بطن أمها إلى العالم، والثانية من دارها إلى بيت زوجها، والثالثة من بيتها إلى القبر!

وهذا الكلام وجد طريقه للأسف إلى بعض الكتب التراثية، حتى إن الراغب الأصفهاني عقد في كتابه «محاضرات الأدباء» فصلا عن

البنات تحت عنوان «فائدة موتها وتمنيها»، نسب فيه إلى نبي الإسلام قوله: «نعم الختن القبر - و«دفن البنات من المكرمات»! (١).

أدار القرآن الحديث عن قوامة الرجال على النساء في أسلوب منطقي مقنع يحمل أولى الألباب على التسليم بها والإقرار بمزيتها ويدعو النساء بخاصة إلى الاعتراف بأنها غنم لهن قبل أن تكون غرما عليهن وكسب يسرهن لا خسار يضرهن، وما القرآن عنا ببعيد فالمتطوف بين آياته وجمله وجوامع كلمه نجده قد أحاط الرجل بأوامر ونواه صريحة وضمنية مستتقة من فحوى الكلام، كلها تكرم المرأة وتصح أوضاعها وتطيب حياتها وتحمل الناس على الاعتراف بإنسانيتها غير مجذوزة ولا منقوصة وتطمئنها على حقوقها في حال الإمساك والتسريح وتبلسر مسئولية الرجل عنها كقوله سبحانه ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٧) وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (٨) وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتَدُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِعِضِّ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٩) وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِمَبِينَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ (١٠) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ (١١) وقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ﴾ (١٢) وكقوله تعالى في شأن المطلقات:

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجُوهِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِيُضْمَبُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾^(١٨) وبقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾^(١٩).

يضاف إلى هذا ما احتوته السنة المطهرة من الوصية بهن والمسئولية عنهن والتحذير من الجور عليهن كقوله (صلى الله عليه وسلم): «اتقوا الله في النساء»^(٢٠) وكقوله (صلى الله عليه وسلم): «استوصوا بالنساء خيرا»^{(٢١)×(٢٢)}.

ويعد رفاة الطهطاوى (١٨٠١* - ١٨٧٣م) أول من دافع عن المرأة في مصر في العصر الحديث، فقد سافر إلى فرنسا في إحدى البعثات، وصنف عن هذه الرحلة كتاب (تخليص الإبريز فى تخليص باريز) (المنشور بالقاهرة سنة ١٨٣٤م)، وفيه عقد مقارنة بين وضع المرأة في فرنسا ووضعها في مصر^(٢٣)، ودعا المصريين إلى الأخذ بأفكار الثورة الفرنسية (المساواة.. الحرية.. الإخاء) وكان أول من طبقها على المرأة، ومارسها في حياته وفى وثيقة زواجه، وكان بحق (الرائد الحقيقي لحركة تحرير المرأة)^(٢٤).

كما تطرق السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) - وهو أستاذ محمد عبده - لحقوق المرأة فى الإسلام من زوايا متعددة، وأعلن رأيه فى قضية تحرير المرأة من النقاب، وكان لا يرى مانعا للسفور بشرط ألا يكون السفور مطية للفجور^(٢٥)، وأعاد النظر فى التفسير التقليدى لعدد من التعاليم الإسلامية وخصوصا فى مجال العلاقات الزوجية ووضع المرأة^(٢٦).

كما ساهم أيضا عبد الله النديم (١٨٤٤ - ١٨٦٩م) خطيب الثورة العربية فى هذا المجال، من خلال مقالات كتبها فى مجلة (الأستاذ)،

على هيئة محاورات سماها (مدرسة البنات)^(٢٧)، أبدى فيها رأيه فى وجوب تعليم البنات، وأن المرأة الجاهلة من أسباب تدهور المجتمع^(٢٨). أيضا دافع قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨م) - وهو يعد صديقا للإمام محمد عبده - عن تحرير المرأة، حتى أصبح اسمه علما على حركة تحرير المرأة فى مصر^(٢٩)، ويحتل قاسم أمين فى التاريخ الفكرى المعاصر مكانة بارزة، ويكفى أننا لا نذكر حركة تحرير المرأة العربية، إلا ونذكر معها كتابى «المرأة الجديدة» و«تحرير المرأة» والكتابان من تأليف قاسم أمين^(٣٠).

ولم تتوقف المجهودات على مساهمة الرجال فقط، بل ساهمت بعض النساء فى تغيير وجهة نظر المجتمع تجاه المرأة، وكانت فى مقدمة هؤلاء (عائشة تيمور) (١٨٤٠ - ١٩٠٢م) التى ناقشت فى كتابها (مرآة التأمل فى الأمم)^(٣١) حقوق الرجال على النساء، وحقوق النساء على الرجال، وقدمت تفسيراً جديداً لمعنى قوامة الرجال وشروطها^(٣٢).

هذا بالإضافة إلى الصالونات الأدبية التى كانت تعقدتها سيدات المجتمع الراقى، وعلى رأسهن الأميرة نازلى فاضل^(٣٣) (١٨٤٠ - ١٩١٣م)، وهى من الرائدات فى هذا المجال. وكانت لها مقالاتها الخاصة التى نشرتها تحت أسماء مستعارة، وقد افتتحت أول صالون أدبى سنة (١٨٨٠م) يؤمه الرجال، غالبيتهم من الأدباء والمفكرين والسياسيين، حيث ناقشوا القضايا السياسية والاجتماعية بما فيها وضع المرأة^(٣٤).

وقد كان الإمام محمد عبده^(٣٥) (١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م) منشغلا بمسائل المرأة و فى عام (١٨٨١م) بدأ يمهد للإصلاحات

التعليمية والاجتماعية التي تخص المجتمع والمرأة باعتبارها نصف المجتمع ، فكتب الإمام فى موضوع الزواج فى الوقائع المصرية التى كان يرأس تحريرها فى (٧ مارس ١٨٨١م) بعنوان (حاجة الإنسان إلى الزواج) ، وبدأ بهذا المقال يمهد لأفكار اختمرت فى ذهنه منذ مدة حيث يبين المقال أهمية الزواج فى بقاء النوع الإنسانى ، وحصول الارتباط بعلاقة المصاهرة بين الناس ، والترابط الأسرى .

ويتضح رأى الأستاذ الإمام فى الموقف الإسلامى الحقيقى من قضايا الأسرة وعلاقات الرجل بالمرأة ، فلقد قدمه فى آثاره الفكرية التى عرض فيها - إجمالاً أو تفصيلاً - لموقف الشريعة من هذه القضايا الثلاث :
أولاً: علاقة الرجل بالمرأة ، وطبيعة الرابطة الزوجية ، وموضوع المساواة بين الجنسين .

ثانياً: موقف الشريعة من الطلاق ، وخاصة تقييد حق الطلاق لتلافى المضار المترتبة عليه .

ثالثاً: موقف الشريعة ، والاجتهاد الإسلامى الحديث ، من موضوع تعدد الزوجات^(٤٦) .

ولم يتحدث الإمام فى مقالاته عن إصلاح المرأة بشكل مستقل بل ربط حديثه عن المرأة بتنظيم علاقتها مع زوجها وتحسين أحوالها الشخصية ليتم بذلك صلاح الأسرة ، فعمل على استصدار قانون يقيد الطلاق ويقيّد تعدد الزوجات ، ثم تناول فى تفسيره للقرآن الكريم موضوع مساواة الرجل والمرأة فى الشريعة الإسلامية ، ليثبت ما منحه الإسلام للمرأة من حقوق ضيعها المسلمون بالفهم الخاطئ لهذه الحقوق .

لقد أراد الإمام من المرأة أن تبرز إلى معترك الحياة، فتشارك الرجل فى بناء المجتمع متأثراً بنموذجين من النساء فى حياته تمثل أولهما فى والدته التى غرست فيه أحاسيس الرحمة نحو المرأة منذ بداية وعيه، فقد كانت سيدة راضية بحياتها رحيمة بأبنائها، تحتبس فى أعماقها حزناً وألماً نتج عن تكرار زواجها واضطرابها ترك أبنائها من زوجها الأول، لتقترن بالثانى، والد الإمام محمد عبده الذى تزوج عليها بأخرى فعاشت فى بيت تشاركها فيه أخريات يقول الإمام: (راضتها على الرحمة عواطف أمومة موزعة بين أولاد زوجين مختلفين، وصفى بعد ذلك نفسها ما كابدته من آلام فى حياتها التى فرقت بينها وبين ما فى حضنها من الأيتام، والتى أطارتها عن وكرها الهدى لتعيش فى دار غريبة رفيقة زوج قاس يضم فى الحياة رفيقة أخرى)^(٣٧).

أما النموذج الثانى من النساء فهى الأميرة نازلى هانم، إذ رأى فيها الإمام قوة الرأى والإرادة والكلمة المسموعة ليس فقط فى أمورها الخاصة، وإنما فى الأمور الاجتماعية العامة أيضاً، فتمتعبت الأميرة بإرادة قوية، وجرأة تفتقدها نساء عصرها، وكانت لا تحتجب عن الرجال، وتحاورهم وتناظرهم مناظرة الند للند، وتحتج على أقوالهم وآرائهم إذا لم توافق عليها، وكانت تعقد صالوناً يجتمع فيه كبار رجال الدولة والأدب والفكر منهم الإمام محمد عبده^(٣٨).

رأى الإمام محمد عبده نموذج المرأة الذى يحاكي شخصية الأميرة نازلى التى كانت جديرة بأن تحمل بنات جنسها على مشاركة الرجل فى نهضة البلاد فهى المثال للمرأة العصرية، أما الأميرة نازلى فقد

أدرکت ما فی الإمام من تفوق عقلي وخلقي فخصته بمكانة تجمع بين الإجلال والتقدير مما دفع الإمام للاهتمام بقضايا المرأة متعلمة ومعلمة وعاملة، وزوجة تبني أسرة تتمتع بكل حقوق المرأة المكرمة^(٣٩).

شغلت قضية المرأة جزءاً من كتابات محمد عبده الأخيرة، وحاول بهذه الكتابات أن يسد الفجوة القائمة بين واقع المدنية الحديثة التي أعطت المرأة كثيراً من الحقوق، وبين الواقع الذي تعيشه المرأة المسلمة في عصره^(٤٠).

وكان أهم ما يميز فكر الإمام محمد عبده هو تفعيل القواعد الفقهية في تأصيل الحلول الجزئية، وربما كان منهج المذهب المالكي في النوازل والفتاوى خير موجه له في بناء الفروع على الأصول، بحيث أوضح أن الدين الإسلامي (أبعد من أن يكون حجر عثرة في سبيل تطور المرأة، وأنه على العكس من ذلك يميل إلى رد حقوقها)^(٤١).

إلا أن المسلمين لم يأخذوا بما جاء به القرآن من أحكام في شأن المرأة بل أهملوه، وارتدوا في كثير منها إلى ما كانت عليه المرأة في الجاهلية، فصار الحال في عصره نسيان (ما جاء القرآن من الأحكام لإصلاح البيوت بحسن معاملة النساء... وعادت إلى جهالة الجاهلية)^(٤٢).

ومن هنا سعى الإمام محمد عبده إلى تصحيح وضع المرأة، بطرح آراء متقدمة وشملت نطاق الآراء التي أبداه، والقرارات التي اتخذها والأحكام والفتاوى التي انتهى إليها حل كثير من مشكلات المرأة، بل تطوير وضعها، ومن أمثال هذه القضايا: هل تعدد الزوجات محمود خلقياً أم مذموم؟ هل يترك حق الطلاق حقاً مطلقاً للرجل أم يقيد؟

هل التعليم أمر ضرورى للمرأة أم الأفضل والأعف والأكرم أن تبقى بلا تعليم؟ وهى مسائل وقضايا أجاب عنها محمد عبده فى حديثه عن حقوق المرأة فى الإسلام^(٤٣).

تناول الإمام محمد عبده أوضاع المرأة من خلال تفسيره للآيات الواردة فى سورتى البقرة والنساء وربطها بواقع المرأة الذى تعيش فيه فى المجتمع ومالها من حقوق وما عليها من واجبات تجاه بيتها ومجتمعها، ومناقشة سبل النجاة للمرأة المسلمة من الظلم المفروض عليها من مجتمعها.

فاتبع فى تفسيره للقرآن الكريم عامة والآيات التى تتناول شؤون المرأة خاصة، المنهج العقلانى المستنير وشرحها شرحا وافيا مبينا ما أدخل على عقيدة المسلمين من تزيف وتضليل أدى بهم إلى سوء فهم أو جهل للمعنى القرآنى المقصود من الآية أو الحكم الشرعى الوارد فى الآية فتبع ذلك بالضرورة فساد فى التطبيق من قبل المسلمين. فعمد فى تفسيره إلى ربط القرآن بالواقع الذى يعيشه المجتمع، فإذا حثت الآية على خلق فاضل بين أثره فى صلاح الأمم وضياعه فى فسادها^(٤٤).

عمل محمد عبده فى تفسيره على إخراج الآيات القرآنية الخاصة بالتنظيم الاجتماعى للأسرة المسلمة والمرأة إلى حيز التنفيذ عن طريق صياغتها فى مواد قانونية، وهذه ميزة انفرد بها الإمام عن غيره من المصلحين الاجتماعيين والمفسرين للقرآن الكريم والمهتمين كذلك بقضايا المرأة، فلم يكتف بشرح الآيات القرآنية المتعلقة بالمرأة وتوضيح المزايا التى خصها الإسلام بها بل عمل على تنفيذ ما ورد فى القرآن الكريم

فى حق المرأة وتمكينها من ممارسة تلك الحقوق بما يتوافق ومستجدات العصر الذى تعيشه المرأة المسلمة ليفتح لها باب الأمل بمستقبل إسلامى جديد.

ولا شك أن الإسلام برىء مما ألقه به بعض المسلمين بسبب سوء الفهم والتطبيق لشريعة الله والغفلة التامة عن دور النساء فى إثراء الدعوة الإسلامية خاصة السيدة خديجة (رضى الله عنها) حيث كانت أول من آمن بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وساندته بنفسها ومالها، والغفلة عن سنته (عليه الصلاة والسلام) مع النساء عامة إلى أن لقي الله عز وجل وفاضت روحه الشريفة فى حجر السيدة عائشة (رضى الله عنها)^(٤٥).

ويتساءل الإمام محمد عبده عن سبب الحال الذى تعيشه المرأة وكيف فقدت مكانتها وسلبت حقوقها باسم الدين والفهم الخاطئ، ووجه نداء إلى المجتمع المسلم ليغير هذا الفهم لدينه ويعيد النظر فى سلوكياته الاجتماعية المختلفة، يقول الإمام: (وقد كان الناس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها، لا يرون للنساء شأنًا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحي ذلك، ولكن الناس لا يأخذون من الوحي فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وإن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية)^(٤٦).

يشير الإمام محمد عبده إلى أن الإسلام قد كرم المرأة ووضعتها فى درجة لم يرفعها إليها دين سابق، ولا شريعة من الشرائع. بل لم تصل

إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده، وأن أوروبا بما بلغته من تقدم في مظاهر الحياة المدنية، وبما قدمته للمرأة من التكريم والتربية والتعليم، لا تزال دون المكانة التي رفع الإسلام المرأة إليها^(٤٧).

بل نقد الإمام التفاسير الأخرى المستمدة من الإسرائيليات، والتي حاولت أن تجعل المرأة مخلوقاً غير كامل، باعتبار أن حواء قد ذكرت في التوراة بأنها خلقت من ضلع آدم، وهو تفسير يرفضه الإمام قائلًا: إن (القصة لم ترد في القرآن كما وردت في التوراة)^(٤٨).

ويؤكد ذلك (تشارلز آدمس) وهو أن الشيخ محمد عبده وأنصاره كانوا يرون (أن الإسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره ديناً أنزل للناس كافة في شيء أكثر مما تتجلى في تكريمه للمرأة... فالإسلام يقر بمساواة المرأة بالرجل في جميع الأمور الجوهرية)^(٤٩).

ويشير الإمام محمد عبده إلى أن القرآن ذكر مساواة الرجل والمرأة، فهما متساويان ومشتركان في الإنسانية التي هي مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر، معتمداً في ذلك على تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٥٠)، بالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٥١). ويؤكد كذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٥٢).

وهذه المساواة مثبتة بما قرره القرآن من أن الرجل والمرأة لهما نفس الحقوق ونفس الواجبات في الدنيا والدين، فهما يتماثلان في الحقوق

والواجبات، وفي الذات والاحساس، وفي الشعور والعقل، أى (أن كلا منهما بشر تام، له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه، وينفر منه)^(٥٣).

أما الاعتداء على النساء لأجل التحكم أو التشفى أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذى لا يجوز بحال، قال (صلى الله عليه وسلم): «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها - إلى أن قال - فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(٥٤).

وختم الآية بقوله عز وجل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥٥)، ولذكر العزة والحكمة هنا وجهان:

أحدهما: إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ما له عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم.

الثانى: جعل الرجل رئيسا عليها، فكان من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى فى عزة سلطانه، ومنكرا لحكمته فى أحكامه. فهى تتضمن الوعيد على المخالفة كما عهدنا من سنة القرآن^(٥٦).

(وسنعرض فى الحديث عن المساواة بين الرجل والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده قوله فى مسألة القوامة والدرجة).

أما مسألة ضرب المرأة فهذه مسألة ينبغى البحث فيها أن يبدأ بتحرير طبيعة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وهى الطبيعة التى تضبط إطارها نصوص شرعية عديدة، من بينها التوجهات القرآنية

مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٥٧) و﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾^(٥٩) - والأحاديث النبوية الشريفة كقوله (صلى الله عليه وسلم): «استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن لكم من نساءكم حقا ولنساءكم عليكم حقا، فأما حقكم على نساءكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم من تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن»^(٦٠).

أما بخصوص قول الله سبحانه: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَآهَجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾^(٦١) يتضح من النص أن الكلام لا ينصرف إلى عموم النساء، لأن الآية تقسم النساء إلى قسمين، فالصالحات ليس للرجال عليهن شىء من سلطان التأديب. وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى بينه وبين حكمه الله تعالى بقوله: ﴿وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾^(٦٢)، أى خروجهن على العرف والمألوف وهو ما أوضحه الإمام محمد عبده، واستطرد قائلا: (إن القاننات لا سبيل عليهن حتى فى الوعظ والنصح، فضلا عن الهجر والضرب)^(٦٣).

ويتضح من ذلك أن المرأة المعنية بهذا النص إما أن تكون سيئة الخلق مع زوجها، أو أن سلوكها لا يطمئن إليه. وفى الحالتين فإن الزوج ليس له أن يبادر بضربها، وإنما عليه أن يبدأ بوعظها وعقابها، وإذا استمرت على مسلكها فله أن يهجرها فى مضجعها، وإذا لم يجد هذا

ولا ذاك فالضرب هو آخر الدواء. على حد تعبير الشيخ محمد الغزالي فإن (التأديب يكون بالسواك مثلا، فلا يكون ضربا مبرحا، ولا يكون على الوجه، ففي الحديث: ولا تضرب الوجه، ولا تقبح أى لا تقول لا قبحك الله)^(٦٥).

وقول الله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾^(٦٥) ويفسر الغيب هنا هو ما يستحى من إظهاره أى حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج^(٦٦).

وقد قسم الإمام النساء إلى قسمين: الصالحات (ليس للرجال عليهن شيء من سلطان التأديب، وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى بينه وبين حكمه بقوله عز وجل ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾^(٦٧) - أى خروجهن عن العرف والمألوف ...

كما يقرر أن القرآن الكريم قد استخدم من وسائل التعبير ما يدل على أن (نشون المرأة هو أمر عارض وليس أصيلا فيها، وأنه ليس القاعدة بل الشذوذ، فيقول: (إن الله تعالى لما كان يحب أن تكون المعيشة بين الزوجين معيشة محبة ومودة وتراض والتئام، لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسنادا يدل على أن من شأنه أن يقع منهن فعلا، بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ إلى أن من شأنه ألا يقع لأنه خروج عن الأصل الذى يقوم به نظام الفطرة، وتطيب به المعيشة، ففي هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة وما هو الأولى فى شأنها، وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها وحسن التلطف فى معاملتها)^(٦٨).

فينهى الإمام محمد عبده عن الإضرار بالنساء وذلك بتفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧١).

يفسر الأستاذ الإمام هذا النهى عن الإضرار بالزوجة فيقول: (٧١) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧١): هذا وعيد بعد وعيد، وتهديد لمن يتعدى حدود الله فى هذه الأحكام أى تهديد، والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجية، وتوقى ما كانوا عليه فى عهد الجاهلية، فقد كانوا يتخذون النساء لعبا، ويعبثون بطلاقهن وإساکهن عبثا.

وذلك يعنى ألا تتهاونوا بحدود الله تعالى التى شرعها لكم فى آية جريا على سنن الجاهلية، فإن هذا التهاون والاعتداء للحدود، بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى، يعد استهزاء بآياته. ومن هنا قال بعض السلف: (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بربه. ولا شك أن الذى يخالف أمر الله وينقض هذه العهود بعد توثيقها طلبا لشهوة من شهواته، أو استمساكا بعادة من عاداته، فهو جدير بأن يعد مستهزئا بآيات الله غير مذعن لها) (٧٢).

ويصرح الإمام محمد عبده أنه بعد التحذير من التهاون بحقوق النساء وجعل العايب بأحكام الله فيها مستهزئا بآياته - وفى ذلك من الوعيد والترهيب ما فيه - أراد تعالى أن يقرر هذه الأحكام فى النفوس

بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها، وبيان المنة في هداية الدين التي هي منها، فقال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾^(٧٣)، أى امتثلوا ما ذكر أنفا من أمر ونهى، وتذكروا نعمة الله تعالى عليكم بالفطرة السليمة فى الرابطة الزوجية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٧٤) وما أنزله عليكم من آيات الأحكام المكملة للفطرة فى الزوجية والحكمة فيها، حال كونه يعظكم بالجمع بينهما... وقد أفسدت على الناس تلك المودة والرحمة، وحجبهم عن الموعظة بالحكمة، وأضعف فى نفوس الأزواج ذلك السكون والارتياح، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى، وكفران النساء لنعمة الرجال وحفظ سيئاتهم، وتماديهن فى الذم لها والتبرم بها، وما مضت به عادات الجاهلية فى بعض المتقدمين وعادات الفرنج فى المعاصرات والمعاصرين، وقلد به الناس بعضهم بعضا، والله سبحانه وتعالى ذكرنا: بنعمته علينا فى أنفسنا لنزيع عن الفطرة السليمة ما غشيها بسوء القدوة واتباع الهوى، ونشكرها له سبحانه بالمحافظة عليها بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها^(٧٥).



هوامش الفصل

- (١) سورة الأنعام - آية ٣٨.
- (٢) سورة الإسراء - آية ٤٤.
- (٣) سورة الأنبياء - آية ١٠٧.
- (٤) سورة طه - آية ٢.
- (٥) فهمى هويدى - الإسلام وحقوق المرأة - ص١.
<http://www.arabhdr.org//publications/other/ahdr/papers/2005>
- (٦) المرجع السابق - الصفحة نفسها.
- (٧) سورة البقرة - آية ٢٢٩.
- (٨) سورة البقرة - آية ٢٣١.
- (٩) سورة البقرة - آية ٢٣٢.
- (١٠) سورة البقرة - آية ٢٣٣.
- (١١) سورة البقرة - آية ٢٣٦.
- (١٢) سورة البقرة - آية ٢٤١.
- (١٣) سورة النساء - آية ٤.
- (١٤) سورة النساء - آية ١٩.
- (١٥) سورة النساء - آية ٢٤.
- (١٦) سورة النساء - آية ١٢٩.
- (١٧) سورة النور - آية ٣٢.

- (١٨) سورة الطلاق - آية ٥ .
- (١٩) سورة التحريم - آية ٦ .
- (٢٠) الحديث رواه مسلم فى صحيحه - كتاب الحج باب حجة النبى
(صلى الله عليه وسلم) - ٢٤٦٩ .
- (٢١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه - كتاب النكاح - باب: الوصاة
بالنساء - حديث ٤٨٩٠ - ج ١ - ص ١٩٨٧ ، ورواه مسلم فى كتاب
الرضاع - باب: الوصية بالنساء - حديث ١٤٦٨ - ج ٢ - ص ١٠٩ .
- (٢٢) د. عبد المنعم سيد حسن - طبيعة المرأة فى الكتاب والسنة -
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٥ م ص ١٦١ .
- (٢٣) رفاة الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - منشور
ضمن كتاب أصول الفكر العربى الحديث - تحقيق: محمود
فهمى حجازى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة -
١٩٧٤ م - ص ١٨٧ .
- (٢٤) لويس عوض - المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى - ج ١ (قضية
المرأة) - معهد الدراسات العربية - جامعة الدول العربية -
القاهرة - ١٩٦٢ م - ص ١١٢ ، وأيضاً: حسين فوزى - رفاة
الطهطاوى - رائد فكر وإمام نهضة - ضمن سلسلة أعلام العرب
- الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - ١٩٨٧ م - ص ١٦٠ .
- (٢٥) جمال الدين الأفغانى - الأعمال الكاملة - تحقيق: د. محمد
عمارة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ودار الكتاب
العربى - ١٩٨٦ م - ج ١ ص ٤ ، ٥ ، وأيضاً: الخاطرات جمعها

وحققها: محمد باشا المخزومي - المطبعة العلمية بيروت -
١٩٣١م - ص ١١٢.

(٢٦) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة من موقع
<http://www.altasamoh.net/Article> - ص ٢.

(٢٧) فاتن عبد الرحمن الطنباوى - موقف الصحافة تجاه قضايا المرأة
- رسالة ماجستير - كلية الإعلام - جامعة القاهرة - ١٩٨٦م
- ص ١٤، نقلا عن: د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده
وقضايا المرأة - ص ٢.

(٢٨) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة - ص ٢.
(٢٩) د. عاطف العراقي - الشيخ الإمام محمد عبده والتنوير - قرن
من الزمان على وفاته - دار الرشاد - القاهرة ط ١ - ٢٠٠٧م
- ص ٢٩٣، وانظر أيضا د. عاطف العراقي - العقل والتنوير
فى الفكر العربى المعاصر - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر -
الإسكندرية - ط ٣ - ٢٠٠٤م - ص ٢٢٥ وما بعدها.
(٣٠) المرجع السابق - ص ٢٩٥.

(٣١) عائشة تيمور - مرآة التأمل فى الأمور - مطبعة المحروسة -
القاهرة - (د.ت).

(٣٢) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة - ص ٢.
(٣٣) نازلى بنت مصطفى فاضل، أميرة من ربات الرأى والعقل والفضل
والأدب، نشأت نشأة حسنة وتلقت العلوم والآداب العديدة التى
أهلتها للاشتغال بالقضايا العمومية، فشاركت بالقضايا السياسية

العثمانية والمصرية، كانت تحسن اللغتين الفرنسية والإنكليزية كما تحسن اللغتين العربية والتركية، لها صالون أدبي يزوره كبار رجال السياسة والأدب وأعيان الدولة في ذلك الوقت منهم محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم، وكل من نبغ من رجال مصر إلا ويذكر لها مآثرها أو يعترف لها بصيحة نافعة، توفيت ١٩١٤م (انظر أعلام النساء - عمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة العاشرة - ١٩٩١م - ج ٥ - ص ١٥٨).

(٣٤) مارجو بدران - رائدات الحركة النسوية المصرية - الإسلام والوطن - ترجمة: على بدران - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - سنة ٢٠١٠م - ص ٢٤.

(٣٥) الشيخ محمد عبده هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل تركمان، من قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة في أسرة تعتز بكثرة رجالها ونسبتها. مولده: ولد الإمام في شترا (من قرى الغربية بمصر). (انظر: خير الدين الزركلي - الأعلام - ج ٦ - دار العلم للملايين - ط ٩ - ١٩٩٠م - ص ٢٥٢).

(٣٦) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - دار الهلال - القاهرة - العدد ٣٤٧ - ١٩٧٩م - ص ١٥.

(٣٧) د. السيد أحمد فرج - المؤامرة المسلمة تاريخ ووثائق - دار الوفاء للطباعة - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م - ص ٥٤.

(٣٨) د. إجلال خليفة - الحركة النسائية الحديثة - ص ٢٧.

(٣٩) د. محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دراسة

وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢م - ج١ - ص ٢٥٧.

- (٤٠) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة - ص٣.
- (٤١) إبراهيم عبده، درية شفيق - تطور النهضة النسائية في مصر منذ عهد محمد علي إلى عهد فاروق - مصر - سنة ١٩٤٥م - ص ٩.
- (٤٢) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ٦٥٤.
- (٤٣) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة - ص٥.
- (٤٤) د. محمد حسين الذهبي - التفسير والمفسرون - ج ٢ - دار الكتب - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٧٦م - ص ٥٦٣.
- (٤٥) الشيخ إبراهيم علي مصطفى النشار - الإسلام والمرأة - عالم الكتب بيروت - ومكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨٧م - ص من ٤٦ : ٤٣٠.
- (٤٦) محمد عبده - تفسير المنار - المنار - القاهرة - ج ٥ ص ٤٠ سورة البقرة آية ٢٣٢.
- (٤٧) د. منى أحمد أبو زيد - الإمام محمد عبده وقضايا المرأة - ص٥.
- (٤٨) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ١٥١.
- (٤٩) تشارلز آدمس - الإسلام والتجديد في مصر - ترجمة: عباس محمود - تقديم مصطفى عبد الرازق - ترجمة دائرة المعارف الإسلامية - مصر - ١٩٣٨م - ص ٢٢١.

- (٥٠) سورة النساء - آية ١ .
- (٥١) سورة الأعراف - آية ١٨٩ .
- (٥٢) سورة الروم - آية ٢١ .
- (٥٣) محمد عبده - تفسير المنار - ج ٢ - ص ٣٧٥ ، وأيضا : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق : د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ٦٣٠ .
- (٥٤) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح - باب المرأة راعية فى بيت زوجها - ج ٥ - ص ١٩٩٦ - ومسلم فى كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال مشقة عليهم - ج ٣ - ص ١٤٥٩ .
- (٥٥) سورة البقرة - آية ٢٢٨ .
- (٥٦) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده - ص ٥٧ ، ٥٨ .
- (٥٧) سورة البقرة - آية ٢٣١ .
- (٥٨) سورة النساء - آية ١٩ .
- (٥٩) سورة الطلاق - آية ٦ .
- (٦٠) رواه ابن ماجة فى سننه .
- (٦١) سورة النساء - آية ٣٤ .
- (٦٢) سورة النساء - آية ٣٤ .
- (٦٣) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق : د. محمد عمارة - ج ٤ - ص ٦٣٠ - ٦٣٥ .
- (٦٤) محمد الغزالى ، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - دار الشروق - ١٩٩٠م - ص ١٧٥ .

(٦٥) سورة النساء - آية ٣٥، ٣٤.

(٦٦) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده -

ص ٦٠، وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٥ - ص ١١٢

(٦٧) سورة النساء - آية ٣٤.

(٦٨) د. محمد عمارة - الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده -

ص ٦١، وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٥ -

ص ١١٢.

(٦٩) سورة البقرة - آية ٢٣١.

(٧٠) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:

د. محمد عمارة - ج ٤ ص ٦٤٧ - ٦٥٠، وأيضا د. محمد عمارة -

الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - ص ٨٩.

(٧١) سورة البقرة - آية ٢٣١.

(٧٢) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق:

د. محمد عمارة - ج ٤ ص ٦٤٧ - ٦٥٠، وأيضا د. محمد عمارة -

الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - ص ٩٠.

(٧٣) سورة البقرة - آية ٢٣١.

(٧٤) سورة الروم - آية ٢١.

(٧٥) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده تحقيق: د. محمد

عمارة ج ٤ ص ٦٤٨ - ٦٥٠، وأيضا د. محمد عمارة - الإسلام

والمرأة في رأى الإمام محمد عبده - ص ٩١.

□□□